

ثقافة كفالة اليتيم



قال ﷺ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُوا زُرْكُمُ وَلَا يَعْزَلَمُ الْعَمَلُ مِنَ الْعَمَلِ) (البقرة/ 220). قد حث ﷺ على رعاية اليتيم من خلال الآية الكريمة؛ لأنَّه جزء من قوَّة الأُمَّة، وعنصر من عناصر الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم. وكفالة اليتيم تعني القيام بشؤونه من التربية، والتعليم، والتوجيه، والنُّصح، والإرشاد، والتهديب، والقيام بما يحتاجه من حاجات تتعلق بحياته الشخصية، وتأمينه على جسده، ونفسه، وعرضه، وماله، وعقيدته، ودينه، وأخلاقه.. والمسلم مأمور أن يُعزِّم اليتيم ممَّا علمه ﷺ، ويوجد عليه خبراته الحياتية؛ لأنَّه ضعيف وعديم الدراية، ومفتقر للموجِّه والمرشد.. والكفالة الحقيقية هي التي تُشعر اليتيم بأنَّه يعيش حياة كريمة، ولا يشعر بفرق بينه وبين أقرانه ممَّن ليسوا أيتامًا. ولقد قاسمت السنَّةُ الشريفةُ القرآنَ الكريمَ في الدعوة إلى الإحسان إلى اليتيم، وإحاطته بالرعاية والعناية بأساليب متنوِّعة، تحفِّز النفوس، وتُهيِّج عناصرَ الخير في قلوب المسلمين للنهوض بدورهم نحو اليتيم.. يقول النبيُّ محمدٌ (صلى ﷺ عليه وآله وسلم): «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا - وأشار بالسبابة والوسطى وفرح بينهما» في إشارة وبشارة منه أنَّ كافل اليتيم سيكون ملاصقًا له (صلى ﷺ عليه وآله وسلم) في الجنة، فكما أنَّ الأصبعين (السبابة والوسطى) متلاصقان جدًّا أكثر من غيرهما، فإنَّ مكرم اليتيم سيكون ملاصقًا للنبيِّ (صلى ﷺ عليه وآله وسلم) في الجنة.

رعاية الأيتام والتحدُّن عليهم مؤشِّر على سلامة المجتمع وتكاتفه وتعاضده، فالمجتمع الذي لا يكرِّم أيتامه مجتمع مفكك، وهذا أمير المؤمنين يوصي بالأيتام حتى لحظة وفاته، فعنه (عليه السلام) - في وصيته قبل الموت: (إِنَّ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تَغْبُوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِعُوا بِحَضْرَتِكُمْ، فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى ﷺ عليه وآله وسلم) يقول: «مَنْ عَالَ يَتِيمًا حَتَّى يَسْتَعْنِي أَوْجِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِزًّا وَجَلًّا لَهُ بِذَلِكَ الْجَنَّةُ كَمَا أَوْجِبَ لِأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ النَّارَ»). وقال تعالى: (وَكَفَّ لَهَا زَكَرِيَّا) (آل عمران/ 37). ولا يخفى أنَّ كفالة نبيِّ ﷺ (عليه السلام) لمريم (عليها السلام) لم تكن كفالة مادية بل معنوية.. فالرعاية التي يستحقُّها اليتيم ليست دائمًا رعاية مادية، بل هناك رعاية معنوية ونفسية واجتماعية وغير ذلك، ومن الواجب ألاَّ نقصُر فيها. وهذا خير دليل على أنَّ الكفالة مهمَّة بشقيها المادِّي

والمعنوي. وقال تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِهِ إِنَّا لَنُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا) (الإنسان/ 8-9). وقوله (ويطعمون) يفيد أن هذه الآية تعلّمنا أن إطعام اليتيم ليس فعلاً فردياً وإنما عمل عام ينبغي أن يتحوّل إلى ثقافة الأسر والعائلات. ولذلك أشارت الأحاديث المروية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى التركيز على كونها ثقافة بيوت وليست ثقافة أفراد فقط، أي تربية عوائلنا على هذه الثقافة الإلهية. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا». وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم): «خير بيوتكم بيت فيه يتيم مُكرّم».

ختاماً، قال تعالى: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبَدِّلُوكَ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) (الكهف/ 82). هذه الآية التي وردت في قصة موسى والخضر إشارة واضحة إلى بناء الخضر لجدار اليتيمين دون أن يتخذ عليه أجراً تعلّمنا أن الله هو الذي أمرنا برعاية الأيتام وتكفّلهم. وبالتالي، فإنّ رعايتهم قبل كل شيء واجب إلهي وتكليف شرعي لا يجوز تجاهله أو تناسيه. إنّ هذه الرعاية ينبغي أن تستمر حتى يبلغ اليتيم أشدّه أي يصبح بالغاً راشداً، أي حتى يستغني ويصبح قادراً على إعالة نفسه. وهذا المعنى أوردته الآية. وإشارة أيضاً إلى أنّ معاملة الأيتام ينبغي أن تكون قائمة على الرحمة لا بدل ولا عوض فيها يطلبه الإنسان وإنما يتوسّم الأجر والثواب وعلو الدرجات يوم القيامة.